الإصحاح السابع عشر

الظــلام وعمــود النــار

"[1] إنَّ أحكامك عظيمة لا يعبر عنها و لذلك ضلت النفوس التي لا تأديب لها . [2] فإنه لما توهم المجرمون انهم يتسلطون على الأمة القديسة إذا هم ملقون في اسر الظلمة و قيود الليل الطويل محبوسون تحت سقوفهم منفيون عن العناية الآبدية. [3] و إذ حسبوا انهم مستترون في خطاياهم الخفية فرق بينهم ستر النسيان المظلم و هم في رعب شديد تقلقهم الأخيلة . [4] و لم تكن الأكنَّة التي لبثوا فيها لتقيهم من الذعر فقد كانت أصوات قاصفة تدوي من حولهم و أشباح مكفهرة تتراءى أمام وجوههم الكاسفة. [5] و لم يكن في قوة النار مهما اشتدت أَنْ تأتى بضياء و لا في بريق النجوم أَنْ ينير ذلك الليل المدلهم . [6] و إنَّمَا كانت تلمع لهم بغتة نيران مخيفة فيرتعدون من ذلك المنظر المبهم و يتوهمون ما يظهر لهم أهول مما هو. " (حك 17 : 1-6)

الليل المدلهم = الليـل المـــرعب.

يقارن المؤلف بين ضربة الظلمة **"[21] ثم قال الرب لموسى مدّ يدك نحو السماء ليكون ظلام على أرض مصر . حتى يلمس الظلام. [22] فمدّ موسى يده نحو السماء فكان ظلام دامس في كل أرض مصر ثلاثة أيام . [23] لم يبصر أحد أخاه ولا قام أحد من مكانه ثلاثة أيام . ولكن جميع بني إسرائيل كان لهم نور في مساكنهم . " (خر 10 : 21-23)** والنور الذي لم يزل ينير العالم كله وبني إسرائيل ثم نور الشريعة ينير على كل إنسان.

"[33] يا لعمق غنى الله وحكمته وعلمه . ما ابعد أحكامه عن الفحص وطرقه عن الاستقصاء. [34] لأن مَنْ عرف فكر الرب أو من صار له مشيراً. [35] أو مَنْ سبق فأعطاه فيكافأ." (رو 11 : 33-35) ما أعظم أعمالك يارب وأعمق أفكارك جداً، الرجل البليد لا يعرف .. ومن يستطيع أن يعرف قصد الله من جميع أعماله. إنَّ الذين لا يدركون هذه الحقيقة هم جهلاء يفتقرون إلى الحكمة فيشكُّون في قدرة الله . وهنا يتحدث عن الضربة التاسعة وهي ضرب الظلام، **فإنه لما توهم المجرمون** (المصريون) **انهم يتسلطون على الأمة القديسة** (بني إسرائيل) الرب ضربهم بالظلام وكان لهم الليل طويل جداً حيث أنهم لم يستطيعوا أن يتحركوا من أماكنهم من شدة الظلام القاتم . وهكذا صاروا أسرى ليل طويل، وظنوا أنهم مستترين في خطاياهم الخفية، وجدوا أنفسهم في خوف شديد تقلقهم الأشباح المرعبة . الإنسان المتكل على الله ومتأكد أن الرب يحرسه، وعنده إيمان بوجود الله لا يخاف أبداً، حتى لو رُمِى في جب الأسود أو آتون النار، بعكس الإنسان الذي ليست فيه أو في بيته

مخافة الرب أو البعيد عن بيت الرب فأي شئ بسيط - مثل الظلام أو حتى قطة صغيرة - يرعبه.

المصريين في منازلهم كانوا في رعب شديد حتى أنهم كانوا يسمعون أصوات مرعبة من حولهم، ويروا أشباح عابسة كالحة الوجوه تتراءى أمام عيونهم . ومع أنه كان ظلام وليل لكنهم لم يستطيعوا الراحة والنوم، والإنسان لا يستطيع النوم في حالة الجوع والخوف والبرد، فهذه الأشياء تُفْقِد الإنسان القدرة على النوم. وهم كانوا تحت الخوف فكيف يستطيعوا النوم. ولم تفيدهم النار ولا النجوم فالخلائق كلها بيد الرب، وهنا يستخدمها في تأديب العصاة. وكان الخوف الذي وقع على قلوبهم والهلع يُظْهر لهم أهول مما هو. وهذا حدث كثيراً في الكتاب المقدس أن الرب أوقع الخوف على أعداء بني إسرائيل . في سفر يهوديت عندما علموا بقتل القائد اليفانا هرب الجميع وكانوا صيداً سهلاً لبني إسرائيل ..

وقارن أيضاً "[12] **وكان المديانيون والعمالقة وكل بني المشرق حالّين في الوادي كالجراد في الكثرة. وجمالهم لا عدد لها كالرمل الذي على شاطئ البحر في الكثرة .** [13] **وجاء جدعون فإذا رجل يخبر صاحبه بحلم ويقول هوذا قد حلمت حُلماً وإذا رغيف خبز شعير يتدحرج في محلّة المديانيين وجاء إلى الخيمة وضربها فسقطت وقلبها إلى فوق فسقطت الخيمة .** [14] **فأجاب صاحبه وقال ليس ذلك إلاَّ سيف جدعون بن يوآش رجل إسرائيل . قد دفع الله إلى يده المديانيين وكل الجيش .** [15] **وكان لما سمع جدعون خبر الحلم وتفسيره انه سجد ورجع إلى محلّة إسرائيل وقال قوموا لأن الرب قد دفع إلى يدكم جيش المديانيين.** [16] **وقسم الثلاث مئة الرجل إلى ثلاث فرق وجعل أبواقاً في أيديهم كلهم وجـرار فارغة ومصابيح في وسط الجـرار.** [17] **وقال لهم انظروا إليَّ وافعلوا كذلك . وها أنا آت إلى طرف المحلّة فيكون كما افعل أنكم هكذا تفعلون .** [18] **ومتى ضربت بالبوق أنا وكل الذين معي فاضربوا انتم أيضاً بالأبواق حول كل المحلّة وقولوا للرب ولجدعون .** [19] **فجاء جدعون و المئة الرجل الذين معه إلى طرف المحلّة في أول الهزيع الأوسط وكانوا إذ ذاك قد أقاموا الحراس فضربوا بالأبواق وكسَّروا الجرار التي بأيديهم .** [20] **فضربت الفرق الثلاث بالأبواق وكسَّروا الجرار وامسكوا الم صابيح بأيديهم اليسرى والأبواق بأيديهم اليمنى ليضربوا بها وصرخوا سيف للرب ولجدعون .** [21] **ووقفوا كل واحد في مكانه حول المحلّة فركض كل الجيش وصرخوا وهربوا .** [22] **وضرب الثلاث المئين بالأبواق وجعل الرب سيف كل وأحد بصاحبه وبكل الجيش . فهرب الجيش إلى بيت شطّة إلى صردة حتى إلى حافة آبل محولة إلى طبّاة .** [23] **فأجتمع رجال إسرائيل من نفتالي ومن اشير ومن كل منسّى وتبعوا المديانيين " (قض 7 : 12-23)**

والظلام دائماً هو فرح الخطاة لأن الشيء الذي لا يستطيعون أن يفعلوه في النور يفعلوه في الظلام. لا يستطيع أحد أن يفعل خطية الزنا في النور أو أمام الناس لكنهم يرتكبوها في الظلام . وللأسف يعتقدون أن الله لا يراهم . فكل من يفعل الشر فهو ينكر وجود الله . لأنه لو فكر الإنسان أن الله يراه فكيف يفعل هذا الشر العظيم

كما قال يوسف الصديق **" ليس هو في هذا البيت اعظم مني. ولم يمسك عني شيئاً غيرك لأنكِ امرأته. فكيف اصنع هذا الشر العظيم وأخطئ إلى الله. " (تك 39 : 9)**

يحكي لنا بستان الرهبان أنه كان يوجد راهب قديس سمع عن إحدى النساء اللواتي يبعن الهوى، فذهب إليها وقال لها أنا أريد أن نعمل الخطية في السوق . فقالت له كيف نفعل ذلك في السوق أمام كل الناس . فقال لها كيف تخافين من الناس والله وملائكته يروكِ تفعلي الخطية؟؟ ومن هذه النقطة أبتدأ يكلمها عن الله حتى ندمت وتابت عن أعمالها . يارب اجعلنا باستمرار نشعر بحضرتك ومخافتك في وسطنا .. آمين.

"[7] حينئذ بطلت صناعة السحر و شعوذته و برز على افتخارهم بالحكمة حجة مخزية. [8] إذ الذين وعدوا بنفي الجزع و البلبال عن النفس الدنفة هؤلاء ادنفهم خوف مضحك. [9] فانهم و إنْ لم يصبهم شيء هائل كان مرور الوحوش و فحيح الأفاعي يدحرهم فيهلكون من الخوف و يتوقون حتى الهواء الذي لا محيد عنه . [10] لأَنَّ الخبث ملازم للجبن فهو يقضي على نفسه بشهادته و لقلق الضمير لا يزال متخيلًا الضربات . [11] فان الخوف إنَّمَا هو ترك المدد الذي من العقل . [12] و انتظار المدد من الداخل اضعف و لذلك تحسب مجلبة العذاب المجهولة اشد . [13] فالذين ناموا تلك النومة في ذلك الليل الذي لا يطاق الوارد من اخادير الجحيم الفظيعة. " (حك 17 : 7-13)

بعد نجاح مؤقت للسحرة عندما رموا العصا وأصبحت ثعباناً لكن عصا هارون ابتلعت عصيهم . **"[11] فدعا فرعون أيضاً الحكماء والسحرة . ففعل عرّافو مصر أيضاً بسحرهم كذلك . [12] طرحوا كل وأحد عصاه فصارت العصي ثعابين . ولكن عصا هرون ابتلعت عصيهم . " (خر 7 : 11،12)** ، ونجاح مؤقت أيضاً في ضربة تحويل الماء إلى دم **" وفعل عرّافو مصر كذلك بسحرهم. فأشتد قلب فرعون فلم يسمع لهما كما تكلم الرب. " (خر 7 : 22)** ولكنهم أخفقوا في ضربة الضفادع فكانت مؤلمة لهم مثلهم مثل الشعب، وأيضاً في ض ربة الدمامل يقول الكتاب " ولم يستطع العرافون أن يقفوا أمام موسى من أجل الدمامل لأن الدمامل كانت في العرافين وفي كل المصريين".

وكان شئ مضحك أنهم الذين أتوا لمساعدة الشعب وقعوا تحت العقاب أيضاً. فلا شئ يستدعي خوفهم ومع ذلك يرتعبون حتى الموت من مرور حشرات حق يرة أو من فحيح أفعى دون أن تلدغ . حتى أن الهواء الذي حولهم كانوا يخافوا منه، لأنهم لا يروا ما الذي سوف يأتيهم من هذا الهواء . وإن دلَّ ذلك على شئ فإنه يدل على أنهم كانوا مرعوبين وخائفين لشدة الذعر، لأن الخبث (الشر) ينتج عنه الخوف. الإنسان الخاطئ خائف باستمرار أن تُكْشَفْ خطيته. فمثلاً إذا قَتَلَ إنسان فسوف يعتقد أن كل الناس تعرف جريمته، ويعيش مؤنَبْ الضمير، خائف، لا يستطيع النوم، حتى أنه يوجد بعض الناس الذين يقوموا بتسليم أنفسهم فقط من عذاب الضمير.

وأول ذِكْر للضمير في الكتاب المقدس كان في سفر الأعمال .. **" فتفرس بولس في المجمع وقال أيها الرجال الاخوة أني بكل ضمير صالح قد عشت لله إلى هذا اليوم. " (أع 23 : 1).** وهذه الكلمة تدل على الضمير الأخلاقي الذي يوبخ على الخطايا المُرْتكبَة. إن التفكير يزيل أسباب الخوف الخيالية، ولكن الضمير المثقّل يعكر صفو ذلك التفكير، ويحول دون قيامه بعمله. وهذا ما حدث أن ضربة الظلام وعدم السلام الموجود في قلوبهم جعلهم يفقدوا كل تفكير، لأننا نستمد السلام من ملك السلام، ولا يستطيع أحد أن يعطي سلام غير ملك السلام. ونحن نأخذ منه هذا السلام أثناء حضورنا القداسات عندما يقول الآب الكاهن " امضوا بسلام، سلام الرب يكون معكم. كما أننا نقتني السلام بالتناول من الأسرار الإلهية والاعتراف والبعد عن العثرات.

"[14] كانوا تارة تقتحمهم الأخيلة و تارة تنحل قواهم من انخلاع قلوبهم لما غشيهم من مفاجأة الخوف الغير المتوقع. [15] ثم حيثما سقط أحد بقى محبوساً في سجن لا حديد فيه. [16] فان كان فلاحاً أو راعياً أو صاحب عمل من أعمال الصحراء اخذ بغتة فوقع في قسر لا انفكاك عنه. [17] إذ جميعهم كانوا مقيدين بسلسلة واحدة من الظلام فدوي الريح و أغاريد الطيور على الأغصان الملتفة و صوت المياه المندفعة بقوة. [18] و قعقعة الحجارة المتدحرجة و ركض الحيوانات الذي لا يرى و زئير الوحوش الضارية و الصدى المتردد فيبطون الجبال كل ذلك كان يذيبهم من الخوف. [19] و بينما كان سائر العالم يضيئه نور ساطع و يتعاطى أعماله بغير مانع. [20] كان أولئك منفردين في ظل ليل مدلهم مشاكل لما سيغشاهم من الظلمة لكنهم كانوا على أنفسهم اثقل من الظلمة. " (حك 17 : 14-20)

هنا يستمر السفر في شرح معاناة المصريين، وكأن نهاية الأيام قد حلَّت عليهم. فكانوا مرعوبين وفقدوا كل توازنهم وكأن المجيء الثاني قادم كما هو مذكور في إنجيل معلمنا لوقا **" والناس يغشى عليهم من خوف وانتظار ما يأتي على المسكونة لأن قوات السموات تتزعزع. " (لو 21 : 26).**

حيثما سقط أحد بقى محبوساً في سجن وهو ما ذُكِر في سفر الخروج **" لم يبصر أحد أخاه ولا قام أحد من مكانه ثلاثة أيام. ولكن جميع بني إسرائيل كان لهم نور في مساكنهم. " (خر 10 : 23)** وإن كان فلاحاً أو مزارعاً أو صاحب عمل كان لا يستطيع أن يتحرك من شدَّة الظلام. وكأنهم مقيدين بسلسلة من الظلام وكانوا يسمعون الريح والعاصفة وصوت مياه متدفقة وكأن أصوات حجارة نازلة من على تل وزئير أسود. وكان السكون الهادئ هو الذي جعلهم يسمعون هذه الأصوات.

حتى الطيور والحيوانات كانت تشاركهم الخوف لأنه لم يمر عليهم مثل هذه الأيام الثلاث في الظلام من قبل، حيث أن الطيور لا تتحرك إلا في النور لكي تبحث عن الطعام. فلنا أن نتخيل الحيوانات والطيور وأيضاً الناس لا يتحركون لمدة ثلاثة أيام.. لا طعام ولا شراب ولا حركة مما جعل الطيور والحيوانات تت ضايق وتيأس من مجيء النور لكي يبحثوا عن طعامهم، وإذا كانوا يستطيعوا الكلام لكانوا طلبوا

من فرعون أن يفهم ويعرف أنه يوجد إله حي يستطيع أن يعطي الظلام على الأرض. ولا يستطيع أحد أن يقف أمام قدرته.

من وجهة نظري إذا كان يوجد عقل لهذه طيور والحيوانات التي رأت بنفسها كل هذه الضربات لكانت تؤمن بإله بني إسرائيل بعكس فرعون والمصريين الذين لم يؤمنوا. وهذا أحياناً ما يحدث معنا .. أحياناً نرى إنسان أنتقل إلى الأمجاد السماوية، أو إنسان تعرض لحادث، فهذه تكون تحذيرات لنا لكي توقظنا لنعرف أن الإنسان ما هو إلا بخاراً يظهر قليلاً ثم يضمحل . فبعض الناس قلبهم قاسٍ والبعض الآخر يتوبون.

ومن ناحية أخرى كان بني إسرائيل عندهم نور وعندهم طعام، وكانوا يمارسون حياتهم اليومية بطريقة طبيعية . وللأسف لم يفهم المصريون أن إلههم يحافظ عليهم، فلم يتركوهم وتقسَّي قلبهم . وقد فسَّر بعض اليهود ضربة الظلام بأنها عبارة عن سحابة كثيفة من الرمال . وقد حدث مثل هذه الحادثة في مصر في عام 1997. وكان الظلام يعُم البلاد في حوالي الساعة الثالثة مساءاً . وأتذكر أن رعب عظيم أحاط بالناس، وذهبت لأحضر عشية في الكنيسة وكان ذلك يوم الجمعة . كان هناك أسئلة كثيرة عن نهاية العالم والظلام الذي حلَّ هناك، فساد خوف عظيم على الناس.

المصريين وحدهم تحت ظلام ليل كثيف، شبه بظلام الموت الذي ينتظرهم، فقد كان ينبئهم بما سوف يحدث لهم في البحر الأحمر . الظلام الحقيقي هو ظلام البصيرة وعدم معرفة الله. القديس ديديموس كان ضريراً، لكن الأنبا أن طونيوس قال له : لا تحزن لفقد البصر الذي يشاركك فيه الحيوانات، لكن أشكر الرب على البصيرة التي عندك ولا يشاركك فيها أحد، والتي تري بها الله.